عنترة..

بطل السّيرة الملحمي

• الأستاذ. أحمد محمد المسناوي •

يمكن اعتبار «سيرة عنترة بن شداد» المصدر الذي تحيل عليه باقي السير الأخرى المماثلة؛ فصاحب «سيرة ذات الهمة» ــ مثلاً ــ يسعى لتقديم صورة مثلى لبطله الصحصاح، فارس بني كلاب، عن طريق استثارة صورة أخرى أكثر رسوخاً في الذهنية العربية، وهي صورة عنترة، البطل الفارس :

«إنه لو عاش في عصر عنترة لجعله من رجاله، ولغدا عنترة بن شداد من غلمانه»(١)

ولا يكتفي صاحب «سيرة حمزة البهلوان» بتشبيه بطله بعنترة، بل يمتد هذا التشبيه إلى مقارنة فرسه بحصان عنترة «الأبجر» المشهور.

ويستقي هذا التأثر بشخصية عنترة عناصره من الملامح العامة لهذه الشخصية، التي أصبحت مثالاً يحتذى في باقي السير المشابهة.

ويرسم القصاص الشعبي صورة لعنترة الطفل، تغاير صورة الأطفال في مثل سنه. وتهيىء السيرة الخيال الشعبي لتقبل بطولات .. وخوارق عنترة الرجل

«وكان مع صغر سنه شديد البطش، لا يبالي بالأهوال، حتى كانت تهابه الأبطال»(٢) فقد قتل كلباً وهو لم يتجاوز أربع سنين، وذئباً وهو في سنه التاسع، وهجم على أسد وأرداه قتيلاً، ومثّل به، وهو ما زال فتىً. ولما اشتد عوده واستكمل مقومات رجولته، أصبح الفارس الذي لا يقاوم، واعترف ببطولته الأقران داخل الجزيرة العربية وخارجها. وتصور السيرة أبا الفوارس، يخوض صراعاً مستميتاً في دنيا الفعل والقول، من أجل فرض مقياس عادل، يلغي في الاعتبار مقياس العبودية واللون، ويحقق قيم العدل والمساواة، في مجتمع متخلف، تسوده علاقات قبلية عنصرية.

يقول عنترة في هذا الإطار :

فإن عابوا سوادي عند ذكري
وجاروا من عنادي في ملامي
فلي قلب أشد من الرواسي
ولوني مثل لون المسك نام
وما أسمو بلون الجلد يوماً
ولكن بالشجاعة والكلام(١٢)

وتعرض السيرة صورتين متقابلتين، فيهما نوع من المفارقة، فبينما تتمثل في عنترة – العبد الأسود – صفات البطولة والشهامة، وسمات البيان، نجد في المقابل شخصية الربيع بن زياد – الشريف النسب يُقدَّم في صورة المخنث المدلل ، المتآمر على حياة عنترة.

وتقدم لنا السيرة مفارقة أخرى، تتمثل في كون زبيبة أم عنترة فارسة تقاوم الفرسان، خارقة بذلك سلوك الإماء، الذي تحدده أعراف مقيدة لحريتهن.

ويوضع عنترة أمام محك التجربة، ليثبت فيها جدارته، وأحقيته في الانضمام إلى صفوف الأحرار، ويصارع أكثر من فارس، ويحقق الانتصار. ويجلي عن حقيقة معدنه في أكثر من موقف حاسم. وكما يؤكد عنترة ذاته كفارس شجاع، يؤكد أيضا مكانته الأدبية كشاعر من الفحول، ويواجه في مشاهد روائية رائعة، أصحاب المعلقات الذين يرون في نسبه ما يحول دون إدراجه في زمرتهم. ويقنعهم بحد السيف، وأسر البيان، بأن أساس التفاضل يتم على أرض الواقع، لا على سماء الأوهام ويعلن المقياس الحقيقي للسمو في قوله :

وما أسمو بلون الجلد يوماً
ولكن بالشجاعة والكلام

ويتوج عنترة هذه المواقف الحاسمة بتعليق معلقته على جدران الكعبة، بعد أن حال نسبه غير العربي دون تحقيق ذلك. وإلى جانب هذا التكريم، تحرص السيرة على تقديم بطل يتصف بالشجاعة، ليجسد بهذه الفضيلة أحلام الشعب. وتحرص في المقابل على إضفاء نفس الخصلة على غريمه، لإثبات قوة البطل الذي لا يقهر بسهولة، والذي لا ينازل إلا الأنداد الذين يكافئونه بأساً وشجاعة.

وتقترن صفة البأس بخصلة العقل في وجدان الشعب، الذي يجعل الحيلة والألمعية، وقوة الملاحظة، من الصفات التي تستلزمها ثقافة الحرب. هذا علاوة على المروءة التي تعني القدرة على حماية النفس، والوطن، والمال، مع الترفع عن الصغائر والدنايا. ويمثل عنترة الوعي الجماعي، ويتجلى ذلك من خلال الهدف الذي كان يكافح من أجله، ويضعه نصب عينيه، وهو يخوض صراعاً ملحمياً من أجل تقويض تقاليد زائفة، راسخة في البداوة، هشة كفرد ينتمي إلى

جماعة، وخلق قيم جديدة لمجتمع جديد، تنتفي فيه العبودية، وتتحقق فيه العدالة الاجتماعية. وانطلق البطل يتغنى بعظمته وبسالته، حتى تحول عنده مُرَكَّب النقص، وعقدة الدونية إلى النقيض، هو الإحساس بالعظمة والبطولة، وهما المثال الأعلى الذي كان ينشده الرجل في عصره. ولم يكن عنترة يتغنى بالقتل، أو يتسلى بمشهد إراقة الدماء، كما هو الشأن عند بعض الشعراء الجاهليين، بل كان يناضل على الواجهتين التعبيرية والواقعية من أجل تحقيق هدف أسمى وهو أن «يحرر (الإنسان) في إنسانيته، ويحرر (الحب) في حبه»⁽٤⁾.

وقد كانت عاطفة الحب حافزاً من الحوافز التي أعانته على انتزاع الاعتراف من أهله وقبيلته، وأحقيته في الانتماء إلى مجتمع الأحرار.

يقول عنترة مخاطباً صديقه مالك بن الملك زهير:

«وما طلبت من أبي النسب إلا لكي يسهل علي وصالها بهذا النسب»⁽٥⁾

وهو لا يحقق هذا الهدف إلا بعد أن يذلل جميع الصعاب، ويتغلب على كل المعوقات التي وضعها المؤلف في طريقه؛ فينجح في تخليص عبلة من الأسر أكثر من مرة، وهو لا ينالها إلا بعد أن يسحق كل أعدائه، ويتوج ملكاً على جميع الفرسان. وتُقرن السيرة انتصار عنترة في ميدان الفروسية بفوزه بحب عبلة واقترانه بها.

وتحكي السيرة عن مفعول الحب العفيف في شحن عنترة بطاقة نضالية وإبداعية عجيبة؛ فمحبوبته عبلة «كانت سبباً لفصاحته ومقاومته الأبطال وشجاعته وتجرئة لسانه، لأنه كلما ذكرها فاض بالشعر لسانه وطلبت نفسه المنزلة العالية وقوي جنانه»⁽٦⁾

وكان من عبقرية عنترة أنه كان يصدر في مثله عن قيم إنسانية، كانت إرهاصاً للمبادىء الإسلامية التي ستجعل حداً للعصبيات القبلية، وتوسع من الوجدان القومي:

«قال الراوي ... إن النبي (ﷺ) قال لزهير ومن كانوا حواليه لو أدركت عنترة ابن شداد لسددت به قطراً من أقطار البلاد»⁽٧⁾ ورغم أن عنترة كان شاعراً، وفارساً جاهلياً، يصارع من أجل تقويض قيم مجتمعه الجائرة، فقد اكتسبت شخصيته مع المجتمع الإسلامي صفة البطولة الإسلامية.

وإذا كانت السيرة في إطار آخر تقدّم البطل في صورة سمجة تحددت معالمها ساعة ميلاده: «جاءت بولد ذكر، وهو أسود أدغم، أفطس المناخر، واسع المحاجر، مهدل الأشداق، مكعر الآماق، مفلفل الشعر،

صلب العظام كأنه قطعة من غمام»(٨) فإن الفارس البطل يصر مع ذلك، على تجاوز هذا الشكل الذميم، عن طريق تبني قيم معنوية راقية، وسلوك بطولي نادر، ومن أجل صيانة هذه القيم، قتل عنترة عبد الملك شاس «لكثرة جوره وسوء أخلاقه لأنه عمد إلى امرأة عربية ودفعها في صدرها فألقاها على ظهرها وأضحك العبيد عليها عند انكشاف سترها»(٩)

وفي المقابل تقدم السيرة البطلة المعشوقة عبلة، باعتبارها مثال الحسن والجمال؛ فهي «غزالة مذعورة» و «مليحة عذراء» «مهفهفة بيضاء» تبدو للناظر كالبدر ليلة اكتماله.

ويعترف عنترة بأنه إذ يتغزل بها، فهو يصف فقط «ما .. كساها الله من الجمال الذي فاقت به كل ذوات الحجال»(١٠).

ولا تنتهي الحكاية بموت عنترة، فقد جعلت له السيرة امتداداً في بطولات أبنائه، واستمراراً في معاركهم. ولا غرابة إذ نجد ابنته غُنَيْتره «تشبه أباها في اللون والمنظر ولعلها تخلفه في الشجاعة والفروسية والبراعة.»(١١).

ولكي لا تصدم السيرة مشاعر القراء المتعاطفين مع فارس الفرسان، والمتعلقين به كنموذج مثالي، تحاول تبرير مقتل بطلها، والذي تم بأيد آثمة، غدرت به، وهو عائد من انتصار خارجي على قيصر ملك الروم.

ولإرضاء الوجدان الشعبي، تأبى السيرة إلا أن تأخذ القصاص عاجلاً من القاتل، فتجعل نهايته مباشرة بعد إطلاقه سهم الغدر على عنترة، الذي تشابه مصيره مع نهاية البطل الأسطوري، الذي لا يفجعه إلا قدره كقوة عليا، لا قبل له بها.

الهوامش

(١) أضواء على السير الشعبية | فاروق خورشيد - ص : ١٥٧ - المكتبة الثقافية - العدد ١٠١ (١٥ يناير ١٩٦٤م).

(٢) سيرة عنترة بن شداد | الأصمعي - المجلد ١ - ص ١١ مطبعة حجازي - القاهرة.

(٣) نفس المصدر ص ٢٤.

(٤) السمات الثورية في التراث الأدبي العربي | حسين مروة - مجلة الآداب البيروتية - ص ٢٠ - العدد ٥ (مايو ١٩٧٥م)

(٥) سيرة عنترة - المجلد ١ - ص ٥٢.

(٦) نفس المصدر - ص ٢٣.

(٧) نفس المصدر - المجلد ٨ - ص ٣٣٦.

(٨) نفس المصدر - المجلد ١ ص ١٠.

(٩) نفس المصدر - ص ١٨.

(١٠) نفس المصدر - ص ٣٧.

(١١) نفس المصدر - المجلد ٨ - ص ٣٢٨.

● ● ●